أ.عبد المجيد عطار

كلية الآداب و العلوم الإنسانية
و العلوم الاجتماعية
جامعة تلمسان

الأنا .. الآخر
وسؤال المستقبل

"نحن نتحدث دائما عن الآخر..خصوصا عندما لانحبه،
أو عندما نخافه، أو عندما يكون فاتنا ساحرا"
المفكر الفرنسي بيتراند بادي

قبل البدء: مثاقفة التساؤل:

ترتبط درجة التساؤل و حركته بدرجة الوعي الذاتي؛فعلى مقدار وعينا بذاتنا و الواقع الذي نعيشه، تتشوف النفس إلى معرفة الخيوط التي نسج منها ذلك الواقع، و معرفة العلل و الأسباب التي كانت وراء المصير الذي انتهت غليه التفاعلات و التطورات التاريخية المختلفة.و علينا أن نشيع قبل كل شيئ روح التساؤل في كتاباتنا و منتدياتنا

و أسرنا حول الجذور و الأسباب التي أدت إلى الحالة الراهنة التي تحياها الأمة.فالعالم الذي نعيش فيه هو عالم الأسباب.و عدم وقوفنا على السبب في بعض الأحيان لا يعني عدم وجوده بمقدار ما يعني عدم نضجنا لإدراكه والاستحواذ عليه.

لامناص، ونحن نحاول قراءة الواقع التاريخي للأمة، من تجزئته إلى مراحل.ثم محاولة النفاذ إلى الإلمام بالعناصر الفاعلة في تشكيل كل مرحلة،ثم محاولة استكناه الأسباب التي أدت إلى ولادة الظواهر بتنوعاتها،ثم رصد ردود الفعل في تلك المرحلة،و محاولة تعليل أسبابها.

وهذا التشريح للحوادث و الظواهر، يجب أن يتم على الصعد الاجتماعية و الثقافية و السياسية و الاقتصادية كافة.

إن هذه الدراسات المعمقة و المكثفة ستمثل نوعا من المقاربة للحصول على جواب على السؤال الكبير الذي يطرحه كل قائد رأي (1)؛ ألا وهو:ما الذي هبط بأمة قادت العالم قرونا إلى أن تصبح في الحضيض(2)؟.

المشكلة التاريخية:

سؤال ظل مطروحا على مفكرينا منذ أواخر القرن التاسع عشر، وحتى الآن.بدءا من رفاعة الطهطاوي ومحمد عبده،مرورا بطه حسين و شكيب أرسلان و قاسم أمين،وصولا إلى مالك بن نبي و المهدي المنجرة ....

و في الفترة الأخيرة بدأت كتابات عدة تحاول أن تتبين معالم الطريق، وبين التساؤلات الكثيرة المتعلقة بمعوقات النهوض،برز السؤال التالي:هل العرب متخلفون بالفطرة؟.(3)

أمام مشكلة الفوات التاريخي للمجتمعات العربية و الإسلامية، و ما تبعها من أسئلة متداعية.تبلورت إجابتان تحاول كل منهما تقديم رؤيتها الخاصة المجاوزة لأفق الانسداد.

1- التنوير:كان إحدى الإجابتين..فالنمط الحداثي الذي بدأ بالانتشار في الوسط العربي الإسلامي، من جراء الاحتكار المعرفي و العلمي الذي يمارسه الغرب.بدأ يطرح خيار التنوير كقنطرة، لتجاوز أزمة الخيبوبة الحضارية، و كان الإطار المرجعي لهذا الخيار هو الأنموذج الغربي في التحديث و التنوير.

2- النهضة:الخيار الآخر الذي طرحه مفكرو الإصلاح المنطلقين من الفضاء المعرفي الإسلامي. أي استيعاب التقدم من داخل الذاتية الثقافية.(4)

و بعد؛هل إعادة أسئلة النهضة في عصرنا الراهن تعد إفلاسا فكريا؟

بعيدا عن الجهوزية في الإجابة نقول:لا ، ذلك أنها أسئلة ذات طبيعة متجددة ومستمرة، ولا يمكن مقايضتها بأسئلة التحديث و التنوير.

المشكلة ليست في طرح أسئلة النهضة(الهوية، التخلف، التقدم، التنمية،...و غيرها من العناوين.)،و إنما في أن نعتمد التكرار في إجاباتنا على الأسئلة. أي أن نعيد نفس أشكال الاصطفاف التي اعتمدناها تاريخيا.

الأنا،الآخر..و جدل التعين:

لاشك أن السؤال المركزي الذي طرح في القرن التاسع عشر،لماذا تأخر المسلمون و تقدم غيرهم؟يشكل النقطة الجوهرية لغالبية الجهود المعرفية و السياسية التي تحاول بلورة المشروع النهضوي و توضيح مقاصده ،و تحديد آليات عمله و آفاقه المنظورة و البعيدة.

و لاشك أن السؤال التاريخي المتقدم طرح مسالة ترتيب العلاقة بين (الأنا و الآخر) في الفكر العربي المعاصر، كشرط ضروري لتحقيق مشروعنا النهضوي التاريخي.

و من الطبيعي أن تتعدد الآراء و الإجابات على هذا السؤال الإشكالية، لاختلاف الأطر و المرجعية لكل كاتب أو مدرسة فكرية، و بفعل تعويم و ضبابية مصطلح (الأنا و الآخر) في دائرة الفكر العربي و الإسلامي.

لهذا فإنه يتعين في البدء تحديد (الأنا و الآخر)، و ما هي حدود كل طرف و إمكاناته الحضارية والتاريخية.

وعلى ضوء هذا التحديد، يتم تصوير العلاقة التي ينبغي أن تكون بين الطرفين(الأنا و الآخر).

تحديد الأنا:

يشكل المفهوم و المصطلح جزءا أساسيا في البناء النظري و المنهجي لأية نظرية أو عقيدة.. لأنه يختزن المضامين و المقولات الأساسية، التي تنادي بها أية نظرية أو عقيدة أو ثقافة.. ومن هنا تتعدى اللغة في كونها مجرد أداة للتواصل اللغوي بين الناس ، إلى جوهر أساسي في عملية التلاقح الحضاري بين الأمم و الشعوب، بحيث لايمكن أن تتم عملية تفاعل بين أمة و أخرى و شعب و آخر،دون اللغة.

تأسيسا على المقولة السابقة، تغدو المفاهيم و المصطلحات وليدة البيئة المعرفية، و حين تختلف البيئات الحضارية و التاريخية تختلف المصطلحات و المفاهيم و دلالاتها الذاتية و الاجتماعية.

هذه المعطيات و تداعياتها هي التي تفرز الحاجة إلى المصطلح في البناء النظري، و النظام الفكري للمجتمع ، حتى يسير بعد ذلك وفق سياق المصطلح المؤسس.(5)

المعنى الذي يعطيه الفكر الأوربي لكلمة (أنا) في عبارة (الأنا و الآخر) مثال العلاقة السببية(الجدلية) بين المصطلح و الواقع الذي ينبثق منه."(الأنا) عندهم مفهوم مبني على السيطرة، سيطرة الذات على ماتتخذه موضوعا لها، سواء كان هذا الموضوع أشياء الطبيعة أو أناسا آخرين. ومن خلال هذا التصور ل(الأنا) كمبدإ للسيطرة يتحدد موقع (الآخر) و دلالته و و ظيفته في الفكر الأوربي، أي بوصفه موضوعا للسيطرة، أو عدوا، أو بوصفه قنطرة تتعرف الذات من خلاله على نفسها."(6) يقول (سارتر):"أنا في حاجة إلى توسط الآخر لأكون ما أنا عليه".(7)

هذه هي (الأنا)، وذلك هو (الآخر)، ضمن حدودهما المرسومة في الفكر الغربي.فما دلالة الطرفين في المنظومة المصطلحية العربية؟.

"بعيدا عن الأطر الجغرافية، التي تحبس المفاهيم و الأفكار و المضامين العقائدية في رقعة جغرافية واحدة، فإننا نرى أن الأنا كما الآخر، ليس رقعة جغرافية، و إنما نحن ننظر إلى الأنا باعتبارها مجموعة القيم الأصيلة ، و المبادئ العليا التي جاء بها الإسلام ."(8) ثم تأتي التجربة التاريخية التي قام بها المسلمون، على هدى تلك القيم و المبادئ، إضافة للخريطة الإدراكية لمضمون(الأنا) في الخطاب المعرفي العربي و الإسلامي."فحينما نستخدم مصطلح الأنا أو الذات فإن المقصود من ذلك هو القيم المعيارية المتعالية على الزمان و المكان مع تجربة إنزال تلك القيم المعيارية المطلقة على الواقع النسبي و المتحرك و المتغير."(9)

والآخر...من؟:

أما (الآخر) الحضاري فليس عنوانا هلاميا، وإنما يعني "مجموع القيم و المبادئ الأساسية التي جاء بها الغرب الحضاري، إضافة على التجربة التاريخية، التي قامت بها شعوب العالم الغربي عموما، انطلاقا من تلك القيم، و عملا
باتجاه إنزالها في الواقع الخارجي...."(10)

المستقبل.. و تاريخه؟!:

هل للمستقبل وجود؟

وهل من الممكن التنبؤ بالمستقبل؟

وهل التعامل مع المستقبل هو تعامل مع حقائق أم مع خيال؟

وهل من الممكن أن نعرف المستقبل كقدرتنا على معرفة الماضي أو الحاضر؟

...تساؤلات شكلت مقدمات تطور حقل معرفي حيوي سمي فيما بعد "علم المستقبل".(11)

فقد بدأ التفكير بالغد من تساؤلات أولية، من نوع التساؤلات التي تواجه أي حقل في بدايات نشأته.و بعد زمن من الاشتغال بهذا النوع من الأبحاث و الاهتمام بها، وما استتبع ذلك من تراكم الخبرة، و توسع الدراسات التطبيقية، و تبلور قدرة التفكير و النظر في تناول أدوات هذا البحث وظواهره .... هذه العوامل مجتمعة إلى جانب عوامل أخرى كالدعم المالي الذي يعد أساسيا في هذا المجال ، ساهمت في تقدم هذا الحقل و تطوره و بروزه.(12)

و الدراسات و المؤلفات(13) التي صدرت حول الموضوع عن أهمية الأفكار و المعلومات و البيانات التي جاء بها، وعن التطور و التقدم الذي حصل في هذا الحقل.. كما

أن الكيفية التي استقبل بها الناس هذه النوعية من الدراسات و المؤلفات أكدت على أهمية ما يمكن أن تضيفه هذه الأعمال في الارتقاء بوعي الناس تجاه المستقبل.

أما اليوم فقد تطور هذا الحقل من الدراسات إلى أن تصبح سمة من سمات المجتمعات المتقدمة، و يرمز إلى تفكير و اهتمام من نوع متحضر، و يلبي حاجة هي من في غاية الأهمية، و يرصدلها مبالغ و ميزانيات ضخمة تقديراِ لأهمية النتائج و الفرضيات و البدائل و الخيارات التي تتبلور من هذا الحقل الحيوي، و ما يترتب عليها من منجزات علمية متقدمة إلى درجة التسابق و التنافس العالمي....

حوار مع اليأس:

كلمة المستقبل تشير إلى الخوف والقلق و التساؤل وذلك لأن الإنسان لا يعرف الغيب، فالمستقبل يثير التساؤل عن شئ غير معروف أي العمل من أجل الزمن القادم لذلك تتداخل في دراسته حركة التاريخ والمجتمع وتتشابك في إطارها معادلات الماضي والحاضر والمستقبل، على أساس إن البدايات تلد النهايات، والنهايات تؤشر البدايات، وما بين البدايات والنهايات وجود متحرك قيمته بتكويناته وإبداعاته، وبذلك فان الماضي يشير إلى الزمن الذي انقضى فلم يعد له وجود أما الحاضر زمن يتحقق وهو في طريقه إلى الانتهاء والانقضاء، بينما المستقبل زمن لم يتحقق بعد وما زال يفتقر إلى الوجود.(14)

يكشف الدكتور المنجرة عن واقع الدراسات المستقبلية في العالم العربي بقوله:"... بدأنا في العالم العربي إجراء بعض الدراسات المستقبلية منذ العقد الماضي، و انتهينا إلى أهميتها، إلا أنها لم تصل إلى ما نرجوه.. و قد أدى غياب الدراسات المستقبلية في الفترة الماضية إلى تعاملنا مع الأحداث كردة فعل، في حين أن العالم الغربي يعد الاحتمالات المختلفة لكيفية التصرف تجاه الكوارث الطبيعية لتجنب آثارها المدمرة اقتصاديا و بشريا و اجتماعيا..في حين أن العالم العربي يتغلب على المشاكل بتأجيلها إلى المستقبل.(15)

تأخر العرب ــ كالعادة ــ في بحث و مناقشة ليس فقط مستقبلهم الثقافي، وإنما أيضا مستقبلهم الوجودي، وما لم يرتفع مستوى الوعي الحضاري في مجتمعاتنا، فلن يكون هناك إدراك و سعي لإنهاض تلك الدراسات، مع ما لها من منجزات إنمائية في الميادين كافة.

آفاق الغد:

نحن اليوم نعيش في عصر كثرت فيه التساؤلات، و علامات الاستفهام، من جراء الثورة المعرفية و المعلوماتية التي نتجت عن التطور في وسائل المعرفة و الاتصال.وفي ظل الانتقالات و التحولات الكبرى التي سيتأثر منها العالم في ملامحه و قسماته، أين نحن في العالم العربي و الإسلامي من كل ذلك؟ و بأي رؤية ننظر لهذه التحولات و التغيرات المتسارعة و المتعاظمة في العالم؟ و أين موقعنا، وأي موقع نختار لأنفسنا في عالم متغير؟ و إلى أين نسير؟وهل ندرك فعلا إلى أين نحن نسير ؟ و ماذا عن المستقبل الذي يقترب بسرعة، هل نحن نقترب بسرعة ؟ كيف نبدع مستقبلنا و نكتشف طريق الوصول إليه؟ التاريخ لا يبقى على حال واحدة، و لايتحرك في اتجاه و احد فقط، و قد بدأ يتغير و تزداد حركته سرعة، وكل الاحتمالات ممكنة، ثم إن التاريخ لم يصل بعد لنهايته... و المستقبل مفتوح على اختيارات أصحابه.

الطريق إلى المستقبل:

البدائل كثيرة، و التخلف ليس قدرا محتوما، و هندسة مستقبلنا الوجودي ــ كما نريده ــ ممكن. والعلاقة مع الآخر ينبغي أن تنطلق من رؤية إيجابية.. يكفينا فقط أن نستفيد من الماضي و أخطائه، و أن يكون الحوار جسرا للتفاهم.

لا نريد التحامل على الآخر(16)، و لانريد أن يتحامل الآخر علينا. المشكلة أن أكثر الآراء حضورا و تداولا هناك، تؤسس لمقولة "الأنا" المركز و "الآخر" الهامش(17)، و التي تحيي روح الحرب الباردة (إلا أن العدو بات الإسلام و العالم الثالث، بدل الشيوعية

و الاتحاد السوفييتي) (18)، أو إنها تكشف عن فشل غبي في وضع استراتيجية صالحة و قادرة على البقاء للتعامل مع الآخر. و هذا عيب مميت في الغرب.(19) و مالم يغير من نظرته إلى ذاته، لن تتغير و تتطور علاقاته بالأمم و الحضارات الأخرى. و هذه النظرة لن تتغير إلا برؤية فلسفية تعيد تشكيل الذات الفلسفية للغرب، الذي يعتقد أن التراع و الصدام هو الذي يوفر حوافز التحدي للتقدم و التطور، وأن يضع أمامه عدوا ليضمن لذاته التنافس الخارجي والتماسك الداخلي.(20)

إن الغرب مباح له تحديد مكانة الآخرين و الحكم عليهم لصالح تاريخه و غاياته و قيمه، والسؤال هنا: " هل بإمكان الغرب الخروج من هذه الشرنقة التي نسجتها جيدا الأحكام القروسطية حول الإسلام."(21)

تبدو الحاجة ماسة لأن يتعرف كل طرف إلى الآخر بعيدا عن الصور النمطية المتشكلة بفعل واقع تاريخي تصادمي غابت عنه رسالة الانسان التي ترتد في نهاية المطاف إلى أن يرقى بإنسانيته و يمعن في ممارستها و الاحتكام لها في شتى شؤون حياته.و من بدهي الأمر أن نقول:"إن هدف الانسان منذ أن وجد، أن يولد مجتمعا معياره تحقيق حظا أوفر فأوفر من العلاقات الانسانية الحقة بين أفراده. من أجل ذلك جاء الأنبياء و المصلحون و الدعاة للعقائد الاجتماعية المختلفة، و لتحقيقه تنافست الأنظار و الأفكار والمذاهب."(22)

المشكلة أننا أمام غرب متقدم و عدواني و يزداد انكفاء على نفسه يوما بعد يوم، وبين عالم عربي وإسلامي متفرق و متخلف و تسوده الحروب الأهلية. و السؤال : أين يمكن أن نعثر على منظور جديد لعلاقة مستقبلية إيجابية تقوم على قاعدة "الاعتماد المتبادل"؟.

خاتمة: بين الحضور و الغياب!

لا شك أن الوجه الإنساني للعالم اليوم وجه مخيف، يذكرنا بالصورة الأخرى ل"دوريان غراي"، أوبصورة "فاوست" في رواية "غوته" الشهيرة حين باع نفسه للشيطان في سبيل الثروة والسلطان.

يتساءل الناقد الأدبي "تزفيتان تودوروف": لماذا يقود فهمنا للآخر إلى الاستيلاء عليه، والاستيلاء إلى التدمير، والتدمير الذي لا يصبح ممكنا إلا بفضل ذلك الفهم على وجه التحديد؟".(23)

أزمة العالم اليوم تكمن في تغيراته السريعة، "فالعنصر البشري يمر الآن بأسرع تغيير في تاريخه، إلا أن ثمة اتفاق قليل إلى أين يقود هذا التغيير، أو ماذا قد يكون معناه أو نتيجته النهائية..ليس ثمة من قوة معروفة تستطيع إيقاف التحول العام الشامل."(24)

ومشاكل المستقبل ستكون ذات بعد عالمي، بمعنى أنها تؤثر على الكوكب الأرضي برمته، وليس أمام المجتمعات الانسانية إلا أن تختار بين: صدمة المستقبل(25) أو تشكيل سلطة(ميثاق) عالمية مهمتها مواجهة تحديات الكرة الأرضية(26)

أما "الأنا" فليس أمامها إلا أن تصنع قوتها، و تبني فضاءها الحضاري و الاقتصادي و الثقافي، لتكون قادرة على ترك بصمتها في التاريخ.

وطريق المستقبل لايسلك إلا بوعي قوانين الحضارة ، ثم تمثلها في واقع الحياة.

ليس ثمة خيار؛ إما التغيير أو الفناء !.

الهوامش:

1) يرى المفكر الفلسطيني الراحل (هشام شرابي) أن المثقف قائد رأي،أو هكذا ينبغي أن يكون.
2) أ.د. عبد الكريم بكار.من أجل انطلاقة حضارية شاملة،دمشق:دار القلم، 1999،ص:10ـــ11
3) لعل هذا ما يحاول الغرب – أو على الأقل جزء منه- إقناعنا به
4) محمد محفوظ.الإسلام، الغرب، وحوار المستقبل، الدار البيضاء:المركز الثقافي العربي،1998، ص:48
5) ينظر:ابراهيم البيومي غانم و آخرون.بناء المفاهيم،القاهرة:المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1998
6) محمد عابد الجابري. مفهوم الأنا و الآخر. في: www.aljabri abed.net
7) نفسه،ص:1
8) محمد محفوظ.الإسلام،الغرب،و حوار المستقبل.مرجع سابق،ص:53
9) نفسه، ص نفسها
10) نفسه،ص:54
11) علم المستقبل تسمية أطلقها الكاتب الألماني"أوسيت فلخينهام" على عملية التنبؤ باستخدام النماذج الرياضية، وهذا العلم يعتمد أساسا على مجموعة إحصائية هائلة، تمتد لعشرات السنين قبل إجراء الدراسة المستقبلية.ينظر:صباح الخير أيها المستقبل، في: www .islamonline .net
12) زكي الميلاد.المسألة الحضارية.الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي،1999،ص:108
13) من أكثر الكتب شعبية في حقل الدراسات المستقبلية كتاب "صدمة المستقبل" لمؤلفه"آلفين توفلر" و الذي صدر في سنة 1970، وقد تربع هذا الكتاب في وقته على قوائم الكتب الأكثر مبيعا في العالم، حيث بيع منه أكثر من ستة ملايين نسخة بعشرين لغة.
14) سليم فرحان جيثوم.كيف نصنع المستقبل.شبكة النبأ المعلوماتية www .annabaa .org

15) د.مهدي المنجرة. الحرب الحضارية الأولى:مستقبل الماضي و ماضي المستقبل، الدار البيضاء:دار عيون،1194،ص:33

16) لطالما شكلت الصورة المسبقة عن الآخر مرسما نظريا للعلاقة به والتعامل معه على أساس من البداهة، بحيث غدت معرفته لا تحتاج إلى أكثر من ذكر اسمه، حتى تلتصق به كل النعوت أو الصفات المحشوة في رؤوسنا عنه، فإذا كان صحيحا أن الأنا تستمد وجودها من اختلافها عن الآخر، علينا إذاً، ألا نخاف من المغايرة، ويجب أن لا نتوجس من أي تنوع، ما دام هذا سمة لوجود البشر منذ أن كانوا... إلى أن صاروا.

17) يراجع بهذا الصدد:د.عبد الله ابراهيم. المركزية الغربية:إشكالية التكون و التمركز حول الذات. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي،1997.

18) جريدة الحياة(لندن).العدد:11686، الجمعة 17فبراير1995

19) صاحب المقولة نائب وزير خارجية سنغافورا(كيشوري محبوباني)، نقلا عن كتاب صدام الحضارات، مجموعة من الكتاب،بيروت: مركز الدراسات الاستراتيجية، 1995،ص:60

20) ينظر: روجي غارودي. أمريكا طليعة الانحطاط.القاهرة:دار الشروق،1999،ص:145

21)هشام جعيط.أوروبا و الإسلام: صدام الثقافة و الحداثة. بيروت: دار الطليعة ، 1995،ص: 15

22)د. عبد الله عبد الدائم. دور التربية و الثقافة في بناء حضارة إنسانية جديدة. بيروت: دار الطليعة،ص:09

23) زكي الميلاد، تركي علي الربيعو. الإسلام و الغرب:الحاضر و المستقبل. دمشق: دار الفكر،1998،ص:19

24) زكي الميلاد. المسألة الحضارية،مرجع سابق،ص:106

25) آلفين توفلر. صدمة المستقبل، ترجمة:محمد علي ناصف.القاهرة: دار نهضة مصر،1984

26) جاك أتالي. آفاق المستقبل. بيروت: دار العلم للملايين،1991، ص:172